﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾

[يوسف: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين وقائع المراوَدة، وتأبّي يوسف عليها بصرْف السّوء والفحشاء عنه

بَعد ما باشرَت امرأة العزيز مَباديها، وفعلَت ما فعلت مِن المُراوَدة، وتغليق الأبواب ودعوَتِه إلى نفْسها، بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، لَم تُبال باستعاذَتِه، بل قصدَت إكراهَهُ للمُباشَرة به، ورأتْ أن لا علاج لهذا إلّا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعَت في تنفيذه أو كادَت، بأنْ همَّت بالتَّنكيل به[1]؛ فقال هُنا: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾؛ أيْ: قصدَت المخالَطة وعزمَت عليها عزمًا جازمًا لا يَلويها عنه صارِف، بعد ما باشَرت مَباديها، وفعلَت ما فعلت ممّا قَصَّ الله تعالى[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾: عَزمَتْ، وقرَّرتْ، وأرادَتْ، والهَمُّ: هو المقارَبةُ مِن الفعلِ مِن غيْرِ دُخولٍ فيه، تقول: هَمَّ بالشَّيْء يَهُمُّ هَمًّا: نَواه وأرادَه وعزَم عَلَيْه[3]، والهِمَّةُ: ما هَمَمْتَ به مِن أَمْرٍ لتَفْعَلَهُ[4]، وأصْل (هَمّ): يدلُّ على ذَوْبٍ وجَريانٍ ودَبيبٍ وما أشبهَ ذلك[5]، ومنهُ حديثُ المرءِ نفسَه بمواقعتِه ما لَم يُواقِعْ، والمعنى هنا: دعتْه إلى نفْسها

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/567، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 130/12.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265، وحقّي، روح البيان: 4/237، والمهائميّ، تبصير الرَّحمن: 1/361.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سِيده، المُحكم: (همم).
(4) الخليل، العين: (باب الهاء مع الميم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (همم).

وتهيّأت لِوقوعه وقَصَدَتْ مِنْهُ الْجِماع[1]، قال أبو عبيدة: هذا على التّقديم والتّأخير، كأنّه أراد: ولقد همّت به، ولَولا أنْ رأى برهان ربِّه لهَمّ بها[2].

2) ﴿بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾: البُرهان: الحُجَّة الفاصلة البَيِّنَة وإيضَاحُها، يُقال: برهَن يُبرهِن برْهنةً، إذا جاء بحُجّة قاطعة للرَّدِّ على الخصْم، وجمع البُرهان: براهين؛ وقد برهن عليه: أقام الحُجَّة[3]، والبُرْهانُ: أَوْكَدُ الأَدِلَّة، وهُوَ الَّذي يَقْتَضي الصّدْقَ أَبدًا لا مَحالَة[4]، واختُلِف في نون البُرْهان؛ فقيل: هي أصليَّة، وتكون الكلمة عندئذٍ مِن بابِ الرُّباعيِّ (بَرْهَنَ)، إذا أَتى بِحُجَّتِه[5] وقيل: لَيْست أصليّة، وقولُهم: بَرْهَن فلانٌ، إذا جاءَ بالبُرْهان، مُوَلَّد، والصَّواب أنْ يُقال: أَبْرَه: إذا جاءَ بالبُرْهان[6]؛ والمعنى هُنا: حُجَّة ربِّه وأدلّتَه الدّالّة على كمال قُبْحِ الزِّنى[7].

3) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: القَبيحُ، وهو نَعْتٌ لكلِّ شَيءٍ رَديء، يُقال: ساءَ الشَّيءُ يَسوءُ سوءًا: قَبُح، فهو سيِّئ. والسّوء: اسم جامعٌ للآفات والدّاء[8]، وأصْلُ (سوء): يدُلُّ على القُبحِ[9] والسَّوءةُ السَّوْءاءُ: الفَعْلَةُ القَبيحَةُ[10]، وساءَهُ يَسوؤه سوْءًا، بالفتح، ومَساءَةً ومَسائِيَةً: نَقيضُ سَرَّهُ، والاسمُ السّوء، بالضّمّ، وتَقول: هذا رَجُلُ سَوْءٍ بالإضافة، ثمّ تُدْخِلُ عليْه الألِفَ واللّامَ، فتَقول: هذا رَجُلُ السَّوْءِ[11]، ومعنى السُّوء هُنا ما كان هَمَّ به مِن أذاها[12].

4) ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾: الفحْشاء: الفاحِشةُ، وهي الزّنى، وكلُّ شَيْء جاوَز حدَّه، فهو فاحِشٌ، وقد فَحُشَ الأمْر بالضّمِّ فُحْشًا، وتفاحَشَ؛ ويُسمَّى الزِّنى فاحِشَةً[13] وأصْلُ (فحش): يدُلُّ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/427، والعزّ، تفسير العزّ ابن عبد السّلام: 2/115، والسّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 306.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/427، وابن عبد السَّلام، تفسير العزّ ابن عبد السّلام: 2/115، والسّيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 306.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(4) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (برهن).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (بره).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أبره).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 215، والهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/373.
(8) الخليل، العين (باب اللَّفيف من السِّين سيء)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوء).
(10) ابن عبّاد، المحيط: (باب اللَّفيف ما أوَّلُهُ السِّيْنُ).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (سوأ).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 16/38.
(13) الجوهريُّ، الصّحاح: (فحش).

على قُبْحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[1]، وجاء الرَّجل بالفُحْش والفَحْشاء، إذا أفْحَش، ورُبما جعلُوا الْفَحْشاء الْفُجور، وقد جاءَ في التَّنْزيل: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [النّحل: 90]. ورُبما قالوا: جاءَ فلان بالفاحشة في معنى الْفَحْشاء[2]. ويسمّى الزِّنى: فاحِشَةً. وقَوْل طَرَفة ابن العَبد[3]:

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي *** عَقيلةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ

يَعني: الّذي جاوزَ الحدَّ في البُخل، وأفْحَشَ علَيه في المَنْطق؛ أيْ: قال الفُحْشَ، فهو فحّاشٌ[4].

5) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: تدلّ تصاريفُ الكلمة (خلص) على تَنْقيَة الشَّيءِ وتهذيبِه[5]، يقولون: خَلَصَ الشَّيْء يَخْلُص خُلوصًا وخَلاصًا، وخَلّصته أَنا تخليصًا إذا صفَّيْتُه من كَدَرٍ أو دَرَنٍ[6]، وخَلصَ الماءُ من الكَدر: صَفا، وخُلاصة الشَّيء: ما صفا، مأخوذٌ من خلاصة السَّمن، وهو ما يُلقى فيه تَمر أو سويقٍ ليَخلُص به من بقايا اللَّبن[7]، والمُخْلَص: الَّذي جَعَلَه الله مُخْتارًا خالِصًا من الدَّنَس، والمُخْلِصُ أيضًا: الَّذي وَحَّدَ الله تَعالى خالِصًا[8]؛ وقَدْ كانَ يوسُفُ ﷺ، موْصوفًا بهاتَيْن الصِّفَتَيْن؛ لأَنَّهُ كانَ مُخْلِصًا في طاعَةِ الله تَعالى، مُسْتَخْلَصًا لِرِسالَةِ الله تعالى[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولقد مالَت نفْسها لفعل الفاحشة، وخَطَرَ على نفْسه هو ذلك، لَولا أنَّه رأى مِن آيات الله ما يكُفُّه عن ذلك ويُبعده، فثبت على

بيان هَمِّ امرأة العزيز وهَمِّهِ بها، لَولا رؤية برهان ربِّه، الصّارف عنه السُّوء والفحشاء

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (فحش).
(3) ديوان طرفة بن العبد، ص: 26.
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (فحش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلص).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (خلص).
(7) الخليل، العين: (باب الخاء والصّاد واللّام معهما).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خلص).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/170.

طُهره وعفّته، وقد أريناه ذلك لنكشف عنه السّوء، ونبعده عن الزِّنى والخيانة، إنَّ يوسف مِن عبادنا المُطهَّرين المصطَفيْن للرِّسالة الّذين أَخلصوا في عبادتهم لله وتوحيده[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بالقَسَم:

بيان جديَّة امرأة العزيز، في مُراوَدتها النَّزِقة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، الواو: حرْف قَسَمٍ وجَرٍّ، والمُقْسَم به محذوف، تقديره: والله لقد همَّت بأن تبطش به، إذ عصى أمرها وخالف مُرادها، بعد أن احتالت عليه بمراوَدته عن نفْسه، وكُلّما ألَحَّت عليه ازداد نفورًا منها، مُعتزًّا عليها بالدِّيانة والأمانة، والترَفُّع عن الخيانة، وحِفْظ شَرف سيِّده وهو سيّدها، ولا علاج لهذا إلّا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعَت في تنفيذه أو كادَت بأنْ همَّت بالتَّنكيل به[2]. فجملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا نحْويًّا، والمقصودُ منها: أنَّها كانت جادّة فيما راودَته لا مُختبِرة[3].

أثر توالي التَّوكيدات في الآية:

تأكيد عزْمها على الفحشاء، بدفع توهُّم ارتداعها عن عزمها الأثيم

في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أكّد همَّها بالقَسَم و(قد)، و(لام القَسَم)؛ ليُفيد أنَّها عزَمت عزْمًا مُحقَّقًا[4]، والتَّأكيد أيضًا لِدَفع ما عسى يُتوهَّم مِن اختصاص إقلاعها، عمَّا كانت عليه بما في مقالته مِن الزَّواجر[5]، والمُراد: همّت بمخالَطته ومجامَعته؛ أيْ: قصدَتها، وعزمَت عليها عزمًا جازمًا، بعد ما باشرَت مباديها، وفعلَت ما فعلت[6]، ولعلّها تصدَّت هنالك لتَجسيد ما تصْبو إليه مِن فعلٍ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 334، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.

(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/567، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/130.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.

(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.

فاحِشٍ، استولى على كيانها ووجدانها، وأغلق عليها منافذ العقل والتّبصّر، فلَم تشعر إلّا وهي منغمسة في الفعل تريد أنْ تمارسه قهْرًا، ولا تعبأ للعواقب الوخيمة، ولكنّ اللّه عصم نبيّه يوسف ﷺ مِن ذلك كلّه.

دلالة لفظ (الهمّ) في الآية:

المقصود مِن ذِكر هَمِّها به ابتداء، التَّمهيد إلى ذِكر انتفاء هَمِّه بها، والفرْق بيْن حالَيْهما

(الهمُّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ يكون بمعنى القصْد والإرادة، ويكون فوق الإرادة ودون العَزم، إذا أُريد به اجتماع النَّفس على الأمر والإزماع عليه، والعَزمُ: القصْد إلى إمضائه، فهو أوَّل العزيمة، وهذا معنى قولهم: الهَمُّ همَّان: هَمٌّ ثابت، معه عَزْمٌ وعقد ورِضا، وهو مذموم مُؤاخَذٌ به؛ وهمٌّ بمعنى: خاطِر، وحديث نفْس، مِن غير تصميم، وهو غير مؤاخَذٍ به؛ لأنَّ خُطور المناهي في الصُّدور، وتصوُّرها في الأذهان، لا مُؤاخذة بها، ما لَم تُوجد في الأعيان[1]. وهمُّها كان عن قصْد وعزيمة بمُخالَطته؛ إذ قصَدَت منه الجِماع وعزمَت عليه عزمًا جازمًا، لا يَلْويها عنه صارِف، بعد ما باشرَت مبادئها مِن المراوَدة، وتغليق الأبواب، ودعوَته إلى الإسراع إليها بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ ولعلَّها تَصدَّت هُنالك لأفعال أُخَرَ مِن بَسْطِ يدها إليه وقَصْدِ المُعانَقة وغير ذلك، ممّا اضطرَّه ﷺ إلى الهرَب نحْو الباب[2]؛ والمقصود مِن ذِكر هَمِّها به ابتداء التَّمهيد إلى ذِكر انتفاء هَمِّه بها لبيان الفرْق بيْن حالَيْهما في الدّين فإنَّه مَعصوم[3].

موقع العطف ودلالته في الآية:

بيان استقلال الجملة، لاختصاص شرْطها، بحال المُسند إليه فيها

جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ معطوفة على جُملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ﴾ كُلِّها، وليست معطوفة على جملة: ﴿هَمَّتْ﴾ الّتي هي

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/166.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/252.

جواب القَسَم المدلول عليه باللَّام؛ لأنَّه لمّا أُردفت جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، بجملة شرْط ﴿لَوْلَآ﴾ المتمحِّض؛ لكونه مِن أحوال يوسف ﷺ وحدَه، لا مِن أحوال امرأة العزيز، تَعَيَّن أنَّه لا علاقة بيْن الجملتيْن، فَتعيَّن أنَّ الثّانية مُستقلَّةٌ لاختصاص شرْطها بحال المُسند إليه فيها[1].

بلاغة المُشاكلَة في الآية الكريمة:

تقرير الفرق بيْن الـهَـمَّـيْن، هـمّ طالِبة الشَّهوة الـحـرام، وهـمّ طـالِـب الـعِـفَّة والاحتشام

عبَّر بالهَمِّ عند يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لمجرَّد وقوعه في صُحبة هَمِّها في الذِّكْر، بطريق المُشاكلَة، لا لِشَبَهِه؛ لأنَّه كما أنَّه بريء مِن ارْتكاب نفْس الفاحشة، والعمَل الباطل، كذلك بَرِئَ مِن الهمِّ المُحَرَّم، فعبَّر عنه بالهمِّ، لمجرَّد وقوعه في صُحبة همّها، ولذا أُشير إلى تباينِهما بأنَّه لَم يَقُل: ولقد همَّا بالمُخالَطة، أو هَمَّ كُلٌّ منهما بالآخَر[2].

وممّا يُقوِّي هذه المُشاكلَة قول مَن قال مِن أهل التَّفسير: إنَّ المُراد مِن همِّه ﷺ دَفْعُها عن نفْسه، ومنعها عن ذلك القبيح؛ لأنَّ الهمّ هو القصْد، فوجَبَ أنْ يُحمل في حَقِّ كُلِّ أحدٍ على القصْد الّذي يليق به، فاللّائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللَّذَّة والتَّنَعُّم والتَّمتُّع، واللّائق بالرَّسول المبعوث إلى الخَلْق، القصد إلى زجْر العاصي عن معصيته، وإلى الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، يُقال: همَمْتُ بفلان؛ أيْ: بضربه، ودفْعِه، فإن قيل: فعلى هذا التَّقدير لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة، فالجواب: أنَّ فيه أعظم الفوائد، وبيانه مِن وجهيْن: **الأوَّل**: أنَّه تعالى أعلَمَ يوسف ﷺ أنَّه لو هَمَّ بدفعها لقتَلَته، أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه الله تعالى أنَّ الامتناع مِن ضرْبها أوْلى صَونًا للنَّفس عن الهلاك، **والثّاني**: أنَّه ﷺ لو اشتغل بدفْعها عن نفْسه، فَرُبَّما تعلَّقت به، فكان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/252.
(2) حقّي، روح البيان: 4/237.

يتمزّق ثوبه مِن قُدَّام، وكان في علم الله تعالى أنَّ الشَّاهد يشهد بأنّ ثوبه لو تمزّق مِن قُدَّام، لاتَّهموه، ولو كان ثوبه مُمزَّقا من خَلْف، لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلَمَه بهذا المعنى، فلا جَرَم لَم يشتغل بدفْعها عن نفْسه، بل ولّى هاربًا عنها، حتَّى صارت شهادة الشَّاهد حُجَّة له، على براءته عن المعصية[1].

فلم يُلِزَّا في قرْنٍ واحدٍ مِن التَّعبير، ودليله أيضًا أنَّه صَدَّر الأوَّل، بما يُقَرِّر وجوده مِن التَّوكيد القسَميِّ، وعقّب الثَّاني بما يعفو أثره، من قوله ﷻ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[2].

نكتة ذِكر الهَمِّ وتعليقه بـ ﴿لَوْلَآ﴾:

نـفـي وقـوع الهَمِّ بها البَتَّةَ، لـوجـود رؤيـة البُرهان

قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، طوَّل المفسّرون في تفسير هذَيْن الهَمَّيْن، والمختار عند المُحقِّقين أنَّ يوسف عليه السلام لَم يَقَع منه هَمٌّ بها البَتَّةَ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفْتَ لَولا أنْ عَصَمك الله، ولا يُقال: إنَّ جواب لَولا مُتقدِّم عليها، وإنْ كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشَّرْط العامِلة، مختلَف في جواز تقديم أجوبَتِها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيُّون، ومِن أعلام البصْريّين أبو زيْد الأنصاريّ، وأبو العبّاس المُبَرّد، بل يُقال هُنا: إنّ جواب لَولا محذوف، لدلالة ما قبلَه عليه، كما يقول جمهور البصريّين في قول العَرب: (أنت ظالم إن فعلتَ)، فيُقدّرونه (إن فعلتَ فأنت ظالم)، ولا يَدُلُّ قوله (أنت ظالمٌ)، على ثبوت الظُّلم، بل هو مُثْبِتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هُنا التَّقدير (لَولا أن رأى بُرهان ربِّه لَهَمَّ بها)، فكان مُوجِدًا الهَمَّ على تقدير انتفاء رؤية البُرهان، لكنْ وُجِدَتْ رؤية البرهان، فانتفى الهمُّ، والآية حينئذٍ ناطِقة بأنّه لَم يهمّ أصلًا؛ ومثله قول الله تعالى: ﴿إِن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/442.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم 4/265، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/166.

كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾

[القصص: 10] فقوله: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ [القصص: 10]، يتخرَّج على ما ذُكِرَ، مِن أنَّه دليل الجواب، والتَّقدير: (لَولا أنْ رَبَطْنَا على قلبها لكادَت تُبدي به)[1]، وبهذا يتبيَّن أنّ يوسف عليه وعلى نبيّنا الصَّلاة والسَّلام بريءٌ مِن الوقوع فيما لا ينبغي، وأنَّه إمّا أنْ يكون لَم يَقَع منه أصلًا، بناءً على أنَّ الهَمَّ مُعَلّقٌ بأداة الامتناع الّتي هي ﴿لَوۡلَآ﴾ على انتفاء رؤية البُرهان، و(لولا) حرْف امتناع لِوُجود، فامتنع الهمّ لوجود البرهان، فقد رأى البُرهان، وانتفى المُعَلَّق عليه، وبانتفائه ينتفي المُعَلَّق الّذي هو هَمُّه بها[2].

احتمال المَجاز بلفظ (الهَمِّ):

يرادُ بالهَمِّ مَيل الطَّبع مُطْلَقًا، وفي كـلّ حـال، ثُمَّ أريد به مَيل الطّبع بلا قصْد

ذَكر جماعةٌ مِن المفسّرين أنَّ معنى (الهمِّ) في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾: خُطور الشَّيْء بالبال، أو: مَيل الطَّبع؛ كالصَّائم في الصَّيْف يَرى الماء البارد، فتحمله نفْسه على الميل إليه، وطلب شُربه، ولكنْ يمنعه دينه عنه، وكالمرأة الفائقة حُسنًا وجمالًا، تتهيَّأ للشَّابِّ النَّامي القَويِّ، فتقع بيْن الشَّهوة والعفَّة، وبيْن النَّفْس والعقل، مُجاذبةٌ ومُنازعة، فالهمُّ هُنا عبارة عن جَواذب الطَّبيعة، ورؤية البرهان جواذبُ الحِكمة، وهذا لا يَدُلُّ على حصول الذَّنب، بل كلَّما كانت هذه الحالُ أشدَّ، كانت القوَّة على لوازم العبوديَّة أكمل[3]، فلا يُؤاخذ بما هَجَسَ في النَّفس والبُرهان صَرفهُ عن هذا الهَمِّ، حتَّى لَم يَصِر عزمًا مُصَمَّمًا وما كان مِن هذا القبيل لا يُؤخَذُ به العبد ولا يُعاتَبُ مَن وُجِدَ فيه هذا المَيل؛ لأنَّه ليس في وُسْعه دفْعه[4]، بل هو مأجور مُثاب على التَّرك بعد الهمِّ، كما قال ﷺ: «ومَن هَمَّ بسيّئة

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/258.
(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 2/210.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/166.
(4) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/166.

فلَم يعملْها، كُتِبت له حَسَنةً كاملة»[1] لأنَّه ترَك ما تميل إليه نفْسه بالطَّبع، خوفًا مِن الله وامتثالًا لأمْره، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النّازعات: 40 - 41][2]، وعلى هذا التَّأويل بمَيل الطَّبع ومُنازعة الشَّهوة، لا القصْد الاختياريّ، مِمَّا لا يدخل تحت التَّكليف، يكون مَجازًا مُرسلًا، بعلاقة الإطلاق والتَّقييد؛ أيْ: قُصِدَ بالهَمِّ ميل الطَّبع مُطْلَقًا، ثُمَّ أريدَ به ميْله بلا قصْد، لكونه مِن أفراده[3].

نكتة تقديم الجواب على ﴿لَوْلَآ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جُعِلَ المذكور قبل ﴿لَوْلَآ﴾ دليلًا للجواب، والجواب محذوفًا، لدلالة ما قبلَ ﴿لَوْلَآ﴾ عليه، ولا مَفَرَّ مِن ذلك على كُلِّ تقدير، فإنَّ لَولا وشرْطها تقييد، لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ على جميع التَّأويلات، فما يُقَدَّر من الجواب، يُقدَّر على جميع التَّأويلات، وتقديم الجواب على شرْطه لِلاهتمام به[4].

الاهتمام بالجواب، والاعتناء بشأنه، مِن مقاصد البيان الفصيح

دلالة الفعْل ﴿رَّءَا﴾ بيْن الحقيقة والمَجاز:

اختلف المفسّرون في البُرهان ورؤيته اختلافَهم في الهمِّ ومعناه، فمِن قائل (وهو قول أكثر المفسّرين): إنَّ يُوسف ﷺ رأى صورة أبيه يعقوب عاضًّا على إصْبعه بفَمه، وهو يقول له: يا يوسف أتعمل عمل السّفهاء، وأنت مكتوب مِن الأنبياء؟[5]، ومِن قائل: إنّه رأى صورة المَلَك، وهُناك مَن قال: إنَّ المقصود بـ ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هو الوعيد في

اشتراك اللَّفظ واحتماله لِمَعنيَي الإبصار والاعتبار

(1) أخرجه البخاريُّ، صحيح البخاريّ، كتاب الرّقاق، باب من همّ بِحسنة أو بِسيِّئة، الحديث رقم: (6491)، ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، بابُ: إذا همّ العبدُ بِحسنة كُتِبت، وإذا همّ بِسيِّئة لم تُكتب، الحديث رقم: (131).

(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/42.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/293.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/253.

(5) الخازن، لُباب التَّأويل: 2/522، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/209.

الآيات الّتي ذكرها الله في القرآن عن الزِّنا، وما رآه مكتوبًا مِن الزَّجر عن ذلك[1]، وقيل إنها حُجَّة نَظَريَّة قبَّحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحْيٌ إلهيٌّ، وقيل: حِفْظٌ إلهيٌّ، وقيل: مُشاهداتٌ تمثَّلت له[2]؛ وقيل غير ذلك.. وكلُّ ما ذُكِرَ جائز الوقوع ولا حُجَّة قاطعة على تَعْيين شيء منها[3].

وقوله: ﴿رَّءَا﴾ تحتمل رؤية البَصَر والبَصيرة، على حدٍّ سواء، فإنْ كانت على حقيقتها، فالمقصود أنْ يراها حقيقة، فيتوسَّل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقُدسه وعلوِّه وعظمته، فيَصْرفه ذلك عن الهمِّ، وإنْ كانت على المَجاز، فهذه الإراءَة، تكون مِن الرُّؤية مُستعارَة للمَعرفة ونظرِ البصيرة؛ أيْ: مِثْل ذلك التّبصير والتَّعريف عرَّفناه بُرهاننا[4] فالرُّؤية: هُنا عِلْميَّة؛ لأنَّ البُرهان مِن المعاني الّتي لا تُرى بالبَصَر[5]، فَتُخرَّج على الاستعارَةِ التَّصريحيّة التَّبعيَّة، أو على المَجاز المُرسَل بعلاقة السَّببيَّة، مِن باب إطلاق السَّبب على المُسَبّب[6].

بلاغة الإيجاز في وصْف مَشهد الهمِّ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ صوَّرَ القرآن الكريم تلك المِحنة في حياة يوسف وامرأة العزيز، تصويرًا واقعيًّا صادقًا، ولكن بأسلوب فيه فطنة وحكمة، بعيدًا عمّا يَخْدش الحياء أو يجرَح الشُّعور؛ فهو نهاية موْقف طويل مِن الإغراء، بَعد ما أبى يوسف في أوَّل الأمْر واستعصَم، وهو تصوير واقعيٌّ صادِق لحالة النَّفس البشريَّة الصَّالحة في المقاوَمة والضَّعف، ثُمَّ الاعتصام بالله في النِّهاية والنَّجاة، ولكنّ السّياق القرآنيّ لَم

التَّصوير الواقعيُّ البارع جاء بعيدًا عمَّا يَخْدش الحياء، أو يجرَح الشُّعور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/108، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/327.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/327.
(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78، وحقّي، روح البيان: 4/237.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/186.

يُفَصِّل في تلك المشاعر البشريَّة المُتداخِلة المتعارِضة المتغالِبة؛ لأنَّه لا يُريد أنْ يجعل مِن هذه اللَّحظة مَعْرِضًا يَستغرق أكثر مِن مساحته المُناسِبة في محيط القصَّة، وفي محيط الحياة البشريَّة المكتملَة كذلك، فذكر طرفَي المَوْقف بيْن الاعتصام في أوَّله، والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحْظَة الهمِّ بَيْنهما، لِيَكتمل الصِّدق والواقعيَّة والجوُّ النَّظيف جميعًا[1].

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ﴾:

بيان حِفْظِهِ مِن السُّوء، كما حُفِظَ مِن قَبلُ مِن الهَمِّ به

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيه في موْضع نصْبٍ؛ أيْ: أَريناه البراهين كذلك، وقيل: في موْضع رفْعٍ؛ أيْ: أَمْرُ البراهين كذلك، والنَّصْب أجْوَد لمُطالبة حروف الجَرِّ للأفعال أو معانيها، والتَّقدير: مِثْل تلك الرّؤية، أو مثْل ذلك الرّأي نُري بَراهيننا لنَصرف عنه، فتُجعل الإشارة إلى الرَّأي أو الرُّؤية، والنّاصِب للكافِ ما دلّ عليه قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾؛ ففي هذا التَّشبيه إشارة إلى الإراءَة المَدلولِ عليها، بقوله: ﴿رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾، أو إلى التَّثبيت المَفهوم مِن ذلك[2].

بلاغة المَجاز في لفْظ ﴿لِنَصۡرِفَ﴾:

الإشارة إلى حِفظ الله تعالى ليوسف مِن السُّوءِ والفحشاء، مع تَوَفُّر أسبابهما

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ﴾؛ أي: أَرَيْناه مِثل هذه الإراءَة، أو ثبَّتناه تثبيتًا مثْل هذا التَّثبيت، لنَعْصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع في السُّوء؛ أيْ: في المنكَر والفجور والمكروه والفحشاء؛ أيْ: كُلُّ ما فَحُشَ وقبُح مِن الأفعال كالزِّنا، ونحوه؛ والصَّرف: نقلُ الشَّيء مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وهو هُنا مَجازٌ عن الحِفظ والصَّون مِن حُلول الشّيء بالمحلّ الّذي مِن شأنه أنْ يحلّ فيه، عبَّر به عن العِصمة مِن شيءٍ يُوشك أنْ يُلابِس شيئًا، والتَّعبير عن العِصمة بالصَّرف،

(1) طنطاويّ، الوسيط: 7/350.
(2) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.

يُشير إلى أنّ أسباب حصول السُّوء والفحشاء موجودة، ولكنَّ الله صرَفهما عنه[1].

علّة التّعبير بقوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم عن صرْف السُّوء والفحشاء عن النَّبيِّ الكريم دون صَرْفِهِ هو عنهما، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، ولَم يَقُل: (لِنَصْرِفَه عن السُّوء والفحشاء)؛ لأنَّه عليه السلام لَم يَعْزِم عليهما، بل لَم يَتوجَّه إليهما فيُصْرَف عنهما[2] ولكنَّه صُرِفَ عنه كيْد المرأة، وهو مصْدر السُّوء؛ فدلَّ على أنَّ ذلك شَيء خارجٌ عن الإرادة، فَصَرَفَهُ الله تعالى عنه، بما فيه مِن موجبات العِفَّة والعِصمة[3]، والمعنى "كذلك فعَلْنا وتَصرّفْنا في أمْره، لِنَصْرف عنه دواعيَ ما أرادَتْه به أخيرًا مِن السّوء، وما راودَتْه عليه قبلَه مِن الفحشاء، بحصانة أو عِصمة منّا، تَحولُ دون تأثير دواعيهما الطّبيعيّة في نفْسه، فلا يُصيبه شيء يُخرجه مِن جماعة المُحسنين الّذين شهِدنا له بأنّه منهم، إلى جماعة الظّالمين الّذين ذمَّهم، وشهِد هوَ في ردِّه عليها بأنّهم لا يُفلحون"[4]. وفي هذه الجملة آية بيِّنة وحُجَّة قاطعةٌ على أنَّه عليه السلام لَم يَقَع منه هَمٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليها قَطُّ[5].

بيان الحُجَّة القاطعة في أنَّ يوسف عليه السلام، لَم يَقع منه هَمٌّ المَعصية

دلالة التَّعليل في ﴿لِنَصۡرِفَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، تكون اللّام للتَّأكيد والمُبالَغة في هذا الصَّرْفِ الخارق للعادَة والحِفْظِ العظيم[6]، أيْ: جرَت أفعالنا وأقدارنا كذلك؛ لِنَصرف عنه دواعي ما أرادَت به مِن السُّوء،

تأكيد حِفْظِ الله تعالى لنبيِّه الكريم، والمُبالَغة في صَرْفِ السُّوء عنه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254 - 255.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/131.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/372، والقِنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/230.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 13/372.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/42.

وما راودَته عليه قبلَه مِن الفحشاء، بعِصمة مِنَّا تَحول دون تأثير دواعيهما الطَّبيعيَّة في نفْسه، حتَّى لا يخرج مِن جماعة المُحسنين إلى جماعة الظَّالمين الّذين ذمَّهم وشهِد هو في رَدِّه عليها بأنَّهم لا يُفلحون[1]، وفي هذا التَّأكيدِ بيانٌ لمَظهرٍ مِن مظاهر رحمة الله تعالى به، ورعايته له[2].

سرُّ التقديم في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾:

قدّم شِبْه الجملة مِن الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهُ﴾ العائد ضَميره إلى يوسف عليه السلام على لفظَي: ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ للعناية بيوسف عليه السلام، فهو في كَنَف الله تعالى وحِفظه، وأنّه هو المخْصوص بصَرْفهما دونها.

النَّبيُّ محلُّ عناية الله ورعايته وحِفْظه

مَعنى ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، ودلالَةُ عطفهما:

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ يَعُمُّ القبائحَ، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ ما تَجاوَز الحَدَّ في القبْح مِن الكبائر، وقيل: السُّوء: الخيانة لِلعَزيز في أهله، والفحشاء: الزِّنا، وقيل غيْر ذلك، والأَوْلى الحَمْل على العموم، فيدخل فيه ما يدلّ عليه السِّياق دُخولًا أوَّليًّا[3] فيكون السّوءُ والفحشاءُ: ما أَنْكَرَهُ العَقلُ، واسْتَقْبَحَهُ الشّرعُ، والعَطْف إمَّا لاخْتلاف الصِّفات، والذّاتُ واحِدةٌ، فإنَّهُ سُوءٌ لاغتِمام العَقل بِهِ، وفحشاءُ بِاستِقباحِهِ إيّاه، فيكون مثْل العطْف في قوله:

الخُلَّصُ مِن العِباد لا يَرْتَكِبُون سُوءًا ولا فحشاءَ تعظيمًا لِمَن خَلَّصهم وأخْلَصهم

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ *** الصَّابِحِ فالغَانِمِ فَالآيِبِ[4]

أيْ: للحارث الّذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فَآبَ، وعلى اعتبار أنَّ السُّوء يَعُمُّ القبائحَ، والفحشاء ما تَجاوَز الحدَّ، فعلى هذا يكون العطْف مِن باب عطْف الخاصِّ الّذي هو أعظم في بابِه، عَلى العامّ، كما

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/130.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 7/340.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.
(4) البيت مِن السَّريع، وهو لابن زيَّابة. ينظر: المرزبانيّ، معجم الشّعراء، ص: 208.

في: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: 4]، على تقدير أنْ يُراد بالرُّوح: جبريل عليه السلام[1].

دلالة إطلاق السُّوء والفحشاء على المَعصية:

المؤمنُ يَغتمُّ من السُّوء، ويَستقبحُ الفاحشَة

في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، نَجِدُ إطلاقَ السُّوء والفحشاء على المعصية، مِن قبيل التَّوصيف بالمصْدر، للمُبالَغة، مثْل: رجُلٌ عَدْلٌ[2]، وعليه يكون المعنى: "لِنَصْرفَ عَنْه السُّوءَ في مقابلَة الإحسان، والفَحْشاءَ بدَلَ العِصمة والعَفاف، إنَّهُ - أيْ: يوسف الصّدّيق - مِنْ عِبادنا المُخْلَصينَ الخالصين، عن رَيْن البشريّة، وشيْن شهْويَّتها وغضَبيَّتها، المُنزَّهينَ عن مقتضيات القوى البَهيميّة مُطلَقًا"[3].

سرُّ تقديم ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾:

السّوء مقدمةٌ لكلِّ الفواحش الّتي تهلك مُقترفيها

قدّم ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾؛ لأنّ السّوء مُقدِّمة لكل أنواع الفحشاء الفعْليّة والقَوليّة والفكْريَّة، مِن نظرٍ بشهْوة، ولَمْس، وقُبْلةٍ.. وغير ذلك[4].

دلالة الفصْل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

تعليلٌ لِما سَبَقَ مِن مضمون الجملة بطَريق التَّحقيق

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استئناف تعليل بطَريق التَّحقيق لحِكمة صرْفِه عن السُّوء والفحشاء، الصَّرْف الخارق للعادَة لئلّا يَنتقِص اصطفاءُ الله إيّاه في هذه الشِّدّة على النَّفْس[5]؛ ولأجْل هذا التَّعليل فُصل بين الجُملتيْن، فكأنَّه قيل: لِمَ فعلَ به هذا؟ فقيل: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[6].

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على تفسير البيضاويّ: 10/295.
(2) حقّي، روح البيان: 1/272.
(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/78.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/371.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/255.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.

دلالة حذف الجرّ في ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

بيان كَون يوسف عليه السلام، مِـن زُمـرة المُخلَصين

قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ يحتَمل أنْ تكون ﴿مِنۡ﴾ للابتداء؛ أيْ: هو ناشئ منهم؛ لأنَّه مِن ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، والأنسب للمقام أنْ تكون ﴿مِنۡ﴾ للتَّبعيض؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، تعليل لِما سبَق، وقد أُكِّدَ بتأكيدات، فالمُناسِب له أنْ يُجعل مِن زُمرة المُخلَصين وبَعضًا منهم، وفيه دليل على أنَّ الشَّيطان لَم يَجِد إلى إغوائه سبيلًا، مِصداقًا لِما جاء في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82 - 83][1].

إضافة العِباد إلى نون العَظَمة:

الإضـافـة لـلـتَّـعـظـيـم والـتَّـشـريـف لهؤلاء الخُلَّص مِن عِباد الله

قوله تعالى ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ أي: الّذين عظَّمناهم بما لَنا مِن العَظَمة[2]، والإضافة إلى نون العظَمة والكبرياء للتَّشريف، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][3].

دلالة لفظ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

بيـان كـونـه عليه السلام في عِداد الخيّرين الأصفياء

لفظ: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بمعنى أنَّه في عِداد الّذين هم خيرٌ صِرْف لا يُخالطهم غِشٌّ، ومِن ذرِّيَّتهم أيضًا، وهذا مع قول إبليس: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [سورة ص: 83] شهادة مِن إبليس أنَّ يوسف عليه السلام بريءٌ مِن الهمّ في هذه الواقعة؛ فمَن نَسَبَ العصيان لهذا النَّبيِّ الكريم إنْ كان مِن أتْباع دين الله؛ فلْيَقبل شهادة الله، وإنْ كان مِن أتْباع إبليس وجُنوده؛ فلْيَقبل شهادة إبليس بطهارَته[4].

سرُّ اختلاف القراءة في لفظ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

قرأ الكُوفيّون: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتْح اللّام، ووَافقَهم المَدَنيّان،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.

التَّـأكـيـد على إخـــــلاص يـوسـف عليه السلام، واستخلاص الله له مكانَةً وقُرْبًا

وقرأ الباقون بكسْر اللّام فيها[1] ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾؛ ووُروده بِاسم الفاعل يدلُّ على كونه آتيًا بالطّاعات والقُرُبات مع صِفة الإخلاص، ووُروده بِاسم المفعول يدلُّ على أنَّ الله تعالى استخلصَه لنفْسه واصْطفاه لحَضْرته. وعلى كِلا الوَجْهيْن فإنَّه مِن أدلِّ الألفاظ على كونه مُنَزَّهًا عمّا نسَبوه إليه، وأمّا بيان أنَّ إبليس أقرَّ بطهارته، فلأنَّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82 - 83] فأقرَّ بأنَّه لا يُمْكنه إغواء المُخلَصين، ويُوسف مِن المُخلَصين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فكان هذا إقرارًا مِن إبليس بأنَّه ما أغواه وما أضلّه عن طريقة الهُدى[2]. فزاد هُنا في التَّأكيد فوصَفَه بـ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أيْ: هو مِن جملة مَن اتَّصف في طاعاته بصِفة الإخلاص، أو مِن جملة مَن أخلصَه الله تعالى، بِناءً على قِراءَتَيْ فَتْح اللّام وكسْرِها[3]، ومعنى التَّعليل على القِراءَتَيْن واحد[4].

نكتة الاعتراض في آية صرْف السّوء:

جـمـع الـبـراءة ليوسف الصّدّيق مِـــن جـمـيـع الـوجـوه على الكمال والتّمام

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، جملة اعتراض بيْن ما سبَقَها مِن كلام، وبيْن الآية الّتي تليها، جيءَ به بيْن المتعاطفَيْن، والمعنى ولقد هَمَّت به وأبى هوَ واسْتَبَقا إلى الباب الخارجيِّ، وفيه تقريرٌ لنزاهة يوسف عليه السلام وعِفَّته[5]، وأنَّ ماهيَّة السُّوء والفحشاء مَصروفَة عنه، فقد شهِد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربَع مرّات، أوّلها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، واللّام للتَّأكيد والمبالَغة، والثّاني: قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أيْ: كذلك لنصْرِف

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/295.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/255.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/474.

عنه السُّوء والفحشاء أيضًا، والثّالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾، مع أنّه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63]، والرّابع: قوله: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]. فكلّ هذه الدّلائل تَدُلُّ على عِصْمة يوسف ﷺ، وأنَّه بريءٌ مِن الذَّنب، ولَو كان قد وُجِدَتْ منه زَلَّة لنُعِيَتْ عليه وذُكِرَتْ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهَمُّ والعزْمُ:

فَرَّق أَهْلُ العِلم بين الهَمِّ والعزم، بفروق كثيرة، فَقالوا: إنَّ الهمَّ: بَدْءُ الإرادة، والعزْم: مُنتهاها[3]، وقالوا: الهَمُّ في باب المَعصية، هو المَيْل الغَريزيُّ أو الميْل الطَّبعيُّ، فإنْ صَرَفَهُ عنه وازِعُ التَّقوى كُتِبَ له به حسنة؛ لقول الرَّسول ﷺ: «وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»[4]، بينما يُعاقَب بالعزْم على المعصية؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجّ: 25].

الـهَـمُّ خُـطـور الأمْر في النَّفْس، والـعـزْم هو الـقـصْـد على إمضائه

وعليه يكون كلٌّ مِن الهَمِّ والعزْم مِن مراتب القصْد، فإنَّ أوَّل مَا يَمُرُّ الأمْرُ بالقَلْب يُسَمَّى خَاطِرًا، فَإذا تَرَدَّدَ صارَ حديثَ نفْس، فَإذا تَرجَّحَ فِعْلُهُ صارَ هَمًّا، فَإذا قَوِيَ واشْتَدَّ صارَ عَزْمًا، فَإذا قَوِيَ العَزْمُ واشْتَدَّ حَصَلَ الفِعْلُ أو القَوْلُ[5]، وقد جمَعَها بعضهم في قوله:

مَرَاتِبُ القَصْدِ خَمْسٌ؛ هَاجِسٌ ذَكروا *** وخَاطِرٌ فَحَدِيثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَمٌّ، فَعَزْمٌ كُلُّها رُفِعَتْ *** سِوى الأَخِيرِ فَفِيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعَا[6]

فالهَمُّ فوقَ الإرادة دونَ العزْم؛ لأنَّ العزم: عَقْدُ القَلْبِ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/345، والكفويّ، الكلِّيّات، ص: 961.
(4) أخرجه البخاريُّ، صحيح البخاريِّ، كتاب الرّقاق، باب مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ، الحديث رقم: (6491)، ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، بَابُ: إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ، الحديث رقم: (131).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط 3/325.
(6) القِنّوجيُّ، فتح البيان: 2/160، والجَمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 1/360.

إمضاء الأمْر، مِن عَزَمْتُ الأمْرَ، وعَزَمْتُ عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159]، فالعزْم: هو تصميمُ القَلْبِ على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقصْدٍ ثابت[1]. وقد يأتي الهَمُّ بمعنى العزم على الفِعل كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: 11]؛ أيْ: صمَّموا النِّيَّة وعزموا عليه، فَيُرادف العزْم، ويأتي بمعنى خُطور الشَّيءِ في البال، وإنْ لَم يَقَع العَزْمُ عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران: 122][2]. ومِن هُهُنا فالهَمّ أنسب لسياق الآية المُعبّر عن الحدَث مِن حيث كونُه ميْلًا غَريزيًّا، وكان بَدء إرادةٍ عندها، وترجّح فِعْله، وتنزّه عنه يوسفُ عليه السلام لما رأى مِن برهان رَبِّه.

النَّظَر والبَصَر والرُّؤية:

النَّظر هو عبارة عن تقليب العَين نحْو المرْئيّ، التِماسًا لرؤيته، فهو طلَبُ ظُهور الشَّيء، ويكون النّاظِر الطّالبَ لِظهور الشَّيء، بإدراكه مِن جهة حاسَّة بصَره، أو غيرها مِن حواسِّه، والنَّظر بالقلْب مِن جِهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكْر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[3]، والرُّؤية هي إدراك المرْئيّ، ولذلك قد يَنظر ولا يراه ولمَّا كانت الرُّؤية مِن توابع النَّظر ولوازمه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية، على سبيل إطلاق اسْم السَّبب على المسبّب[4]، كما ورَد في حكاية عن طلَبِ موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعةُ الهلالَ، فيَراه جماعةٌ منهم ولا يستطيع الآخَرون رؤيته، مع أنَّهُم جميعًا ناظِرون[5]؛ فالفرْق

الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميّز بالعِلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 961، والرّاغب، المفردات: (عزم).
(2) العسكريُّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 356.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.

بيْنهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبَصَر نحْو المرئيِّ. أمَّا البصَر فهو إدراك العيْن، ويُطلق على القوَّة الباصِرة، الّتي مِن شأنِها إدراك أشباح الصُّوَر،[1] والعيْن هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصَر ليدلَّ على العِلم القويِّ، المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[2]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرْق بيْن النَّظر والبصَر، كالفرْق بيْن النَّظر والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وخُلاصة القول في الفرْق بيْنهم: أنَّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميّز بالعِلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمّل، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ. ومِن هُنا كان الإدراكُ والعِلم المُتضمّنَان في لفظ الرُّؤية واللّذان تقتضيهما العِبرة مِن البُرهان؛ علّةً لاختياره في سياق الآية دون غيْرِه مِن الألفاظ المُشابهةِ له.

(1) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/938.
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/544.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»